

الجدل واثبات الوجود عند زينون الإيلي

Dialectics and proof of existence at zeno of elea.

مختبر الأبعاد القيمية للتحويلات الفكرية والسياسية بالجزائر/ كلية العلوم الاجتماعية/ جامعة وهران 2/ الجزائر.	فلسفة	مزيتي الجيلالي Meziti Djillali* djilaliphilo@gmail.com
مختبر الأبعاد القيمية للتحويلات الفكرية والسياسية بالجزائر/ كلية العلوم الاجتماعية/ جامعة وهران 2/ الجزائر.	فلسفة	أد. بوسيف ليلي Boucif Lila la_boucif@hotmail.fr
DOI: 10.46315/1714-011-001-031		

الإرسال: 2020/06/29 القبول: 2020/12/19 النشر: 16/01/2022

ملخص: تهدف هذه الدراسة إلى البحث في مفهوم الجدل، وعلاقته بفلسفة الوجود عند "زينون الإيلي" حيث ارتبط الجدل بالفلسفة، كوسيلة لفهم الحقائق والمبادئ الأزلية عند أفلاطون، واستدلالي مبني على آراء محتملة عند أرسطو، وتطور منطقي للفكرة ونقيضها، حتى نصل إلى المطلق عند هيجل. وبرهان الخلف، وإثبات خطأ الخصم بالوصول إلى نتائج مُناقضة للمسلّمات، عند "زينون" مؤسس الديالكتيك. فما هي دواعي الجدل عنده؟ ولماذا نفى الكثرة والحركة؟ وما علاقة الجدل بالوجود؟ الكلمات المفتاحية: الجدل؛ الوجود؛ الكثرة؛ الحركة؛ الجوهر؛ الأعراض.

Abstract: This study aims to investigate the concept of dialectics, and its relationship to the philosophy of existence at "Zeno of Elea", where dialectics was linked to philosophy as a means of understanding the eternal facts and principles of Plato, and a reasoning based on possible opinions of Aristotle, the logical development of the idea and its opposite until we reach the absolute in Hegel, proof by the absurd, and proof The opponent's mistake in reaching conclusions contradicting with the presuppositions, according to the inventor of the dialectic "zeno".

What are the reasons for dialectics to Zeno? And why denies multiplicity and movement? What is the relationship of dialectics with existence?

Key words: dialectics; existence; multiplicity; movement; substance; accidents.

*- مقدمة:

يسلك الإنسان لإثبات آرائه وتصوّراته، أو دحض آراء الخصوم طرائقاً عدّة، ومناهجاً مختلفة أشهرها الجدل. والجدل كعمارة، وحدث قديم قدم الإنسان إذ لازم الوجود الإنساني من بدايته، فقد كان خلق الإنسان نفسه مثار جدل بين الملائكة والخالق، ثم بين إبليس والخالق، إضافة إلى مجادلة الأنبياء والرسل أقوامهم، وهذا ما نجده في قصص القرآن الذي تختلف فيه صور الجدل وحججه. فالإنسان مجبول على الجدل، وهذا ما يجعله مرتبطاً بالعديد من مجالات المعرفة الإنسانية، والدينية، والفلسفية والطبيعية. والفلسفة كارتق صور المعرفة باعتبارها الحكمة أو محبة الحكمة اعتنت بالجدل عناية فائقة، حتى أصبح فرعاً منها وهو ما يُعرف بالمعرفة المنطقية. فالفلسفة في حد ذاتها عبارة عن جدل، وميدان خصم للمناظرة ومقارعة الحجّة بالحجّة، ممّا عزّز روابط الجدل بالفلسفة، كما يُشير أغلب الدارسين للفلسفة اليونانية. فسقراط استخدم الجدل في منهجه التوليدي، ثم عرف الجدل أوج تطوره، وتبلور كمنهج في البحث عن الحقائق عند أفلاطون. ليأتي الدور على أرسطو الذي حدّد مفهومه ومبادئه مُبيّناً فائدته وعناصره المشكّلة له، حيث أفرد له باباً خاصاً ضمن كتبه المنطقية عنونه بالطوبيقا. لكن أرسطو لا ينسب اكتشاف الجدل لنفسه، بل يُؤكّد أنّ الفضل كلّه يعود لزينون الإيلي (490-430 ق.م).

وهو ما أشار إليه ديوجين اللائسي في كتابه "حياة ومذاهب الفلاسفة"، حيث يُصرّح أرسطو قائلاً: "إن زينون الإيلي هو مكتشف الديالكتيكا" أي الجدل (اللائسي، د، 2014، 126). فما هي حجج هذا الحكم؟ وما مفهوم الجدل عند زينون وما هي أهمّ مبادئه؟ وما علاقة الجدل بالوجود؟ وما تأثيره على المعرفة الإنسانية عامّة وتاريخ الفلسفة والمنطق خاصة؟ وللإجابة عن هذه التساؤلات وما تستنبته من نتائج، انتهجنا في هذه الورقة البحثية المنهجين: التحليلي والاستقصائي، وذلك بعرض الآراء وتحليلها ومناقشتها.

1-تعريف الجدل:

أ- التعريف اللغوي:

ورد في الموسوعة الشاملة (Encyclopédie universalis, 1993, p359) معاني عدّة لكلمة جدل (dialectique) وهي مُشتقة في الأصل من الكلمة اليونانية (dialegein) δίαλεγεῖν التي تتكوّن من جزأين (legein) وتعني الكلام أو الخطاب والحجّة، والسابقة (dia) وتعني التبادل والحوار، وبذلك وعند الجمع بينهما تعني الكلمة تبادل الكلام أو الحجج أو المناقشة. أما في اللغة العربية كلمة جدل تعني: جدل جدلاً، اشتدّت خصومته وجداله مُجادلةً وجدالاً وناقشه، وخاصمه وفي القرآن الكريم "وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ" (صليبيا، ج، 1982، 391).

وما يمكن أن يُفهم من خلال الاشتقاق اللغوي أنّ الجدل هو فنّ الكلام والمناقشة، وظيفته البرهان ودحض كلام الخصم.

ب- أما في الاصطلاح الفلسفي: فله عدّة معانٍ نتوقّف عند أبرزها:

فَعند أفلاطون: هو منهج في التحليل المنطقي، يقوم على قسمة الأشياء إلى أجناس وأنواع بحيث يُصبح منهجًا لإدراك المبادئ والحقائق الأزليّة. (مدكور، إ، 60، 1983) وهو على نوعين جدل صاعد، يرتقي بالفكر من الإحساس الى الظن، ومن الظن الى الاستدلال، ومن الاستدلال الى العقل الخالص. أمّا الجدل الهابط فينزل بالفكر من المبادئ العليا الى الأجزاء والأنواع.

فقد رفع أفلاطون من شأن الجدل ومكانته، فهو العلم الوحيد في نظره الذي يمكن من إدراك الحقائق الأولى، وهو ما يؤكده في كتاب الجمهورية، على لسان "سقراط" في محاورته لـ "كلوكون".

"سقراط: إن علم الجدل، وحده، يذهب مباشرة إلى السبب الأول، وهو العلم الوحيد الذي يلغي الفرضيات، كي يجعل أساسه متيناً".... ثم يضيف سقراط قائلاً: علم الجدل كما ستوافق هو الحجر الأعلى للعلوم" (أفلاطون، 1994، 348، 349). قدم أفلاطون جدله على شكل محاورات يتبادل فيها سقراط مع محاوريه وجهات النظر والآراء. ينتج من هذا الحوار التبادلي الارتقاء في وجهات النظر الفلسفية والمواقف المتخذة.

إنّ الجدل الأفلاطوني عبارة عن حجاج يتيح للفكر إدراك الحقائق بعد أن طرأ عليها تغيير وتنقيح، والتخلي عن الآراء والمواقف الأولية الجاهزة والسادجة.

يرى أرسطو على خلاف أستاذه أفلاطون، أنّ الجدل استدلال مبيّئ على التّرجيح والظنّ، يحتمل الصدق، وقد يحتمل الكذب، لذلك فهو لا يصلح دائماً لإدراك الحقائق، وهو أدنى مرتبة من البرهان الذي يتّصف باليقين، فالقياس الجدلي: "ينتج عن مُقدّمات ذائعة... والمقدّمات الذائعة هي التي يظنّها جميع الناس أو أكثرهم أو جماعة الفلاسفة أو أكثرهم أو المشهورون منهم والذين هم في غاية النباهة" (الدمشقي، أ، 1980، 489، 490).

والجدل عند أرسطو "يكون بين سائلٍ ومُجيبٍ يُقصد كلّ منهما غلبة صاحبه، بأيّ نوع اتّفق من الأقاويل" (ابن رشد، 1992، 500)، ولا يحصل ذلك إلا بتبادل الحجج والحجج المضادة، وعليه يُمكن القول أنّ الجدل الأرسطي وفق هذا المفهوم، يُعدّ منهجًا حجاجيًا في الحوار والمناقشة الغاية منه غلبة الخصم وإقحامه بدرجة أولى، ثمّ إصابة الحقّ وتمييزه عن الباطل بدرجة ثانية.

أما في العصر الحديث يتصدّر الفيلسوف الألماني "هيجل" طليعة الفلاسفة، الذين عنوا بالجدل عناية فائقة، حيث يستعيد هيجل الرؤية الأفلاطونية في تأكيده أنّ الجدل هو المنهج الوحيد الذي يسمح بإدراك الحقيقة الأولى. كما أنه يتجاوز المفهوم الأرسطي الذي اعتبره استدلالاً ظنيّاً يصلح للحوار والمناقشة أكثر منه منهجاً يُساهم في إدراك الحقائق.

فالجدل عند هيجل هو: "التطور المنطقي من الفكرة ونقيضها إلى المركب، ثم متابعة ذلك حتى نصل إلى المطلق" (Encyclopédie universalis, 1993, p359). غير أن هيجل يختلف عن أفلاطون في تحديد "الأطراف المتضادة". "فهم عند أفلاطون الناس أي سقراط ومُحاوروه، أما عند هيجل "الأطراف المتضادة" هي تعريفات مختلفة للمفاهيم المنطقية التي تعارض بعضها البعض" (موسوعة ستانفورد للفلسفة، 2019، 2).

لذا يُقلّل هيجل من شأن طريقة أفلاطون في الجدل، "لأنه لا يتعامل إلا مع ادّعاءات فلسفية محدودة، لا يمكن أن تتجاوز التعسف والريبة. وتُنَجِّح حقائقاً تقريبية فقط" (موسوعة ستانفورد، 2019). وينتقد هيجل كل المحاولات السابقة، التي حاولت استعارة مناهج العلوم الأخرى التجريبية أو الرياضية، لأنّ منهج الأولى تحليلي أما منهج الثانية تألّفي، لذا المنهج الأنسب للفلسفة هو المنهج الجدلي، والذي يجمع بين التآليف والتحليل في جميع خطواته (عبد الفتاح، إ، 2007، 18). "إنّ المنهج الفلسفي هو المنهج الجدلي، ويُسمّى كذلك بالمنهج المطلق. يقول هيجل: المراحل التي تسير فيها الفكرة الشاملة هي ما أُسمّيه بالمنهج" (عبد الفتاح، إ، 2007، 22).

فإذا كانت الفكرة المطلقة هي الحقيقة الأولى التي تنشدها فلسفة هيجل، وكان الجدل هو المنهج الكفيل بإدراك هذه الغاية، فإنّه يصحّ القول أنّ مفهوم الفلسفة يتماهى مع مفهوم الجدل حيث يصبحان شيئاً واحداً، هذا الرأي يؤيده أمام عبد الفتاح أمام (2007، 26) بقوله "فهذه الفلسفات ليست إلا تطبيقات للمنطق، أو هي المنهج الجدلي مُطبّقاً على موضوعات عينية".

من خلال استعراضنا ماهية الجدل عند ثلاثة من أعظم الفلاسفة عبر التاريخ، يظهر الاختلاف القائم حول مفهوم الجدل وآلياته. بين من يرتقي به لينصّب على قمة هرم العلوم، ويجعل منه الطريق الوحيد الذي ينتهي بسالكة إلى الحقيقة الأولى أو الفكرة المطلقة، وبين من ينزل به ليجعل منه مجرد قياس ظنيّ، لا ترقى نتائجه بالضرورة إلى مرتبة الحقيقة. وما يُوحّد هذا الاختلاف القائم بين هؤلاء الفلاسفة حول مفهوم الجدل، اتّفاقهم مع غيرهم من الدارسين على الاعتراف بفضّل زينون الإيلي كمخترع للجدل والذي جعل منه أساساً لفلسفة الطبيعة إضافةً إلى دوره في صياغة وتشكّل هذا المفهوم عند الفلاسفة المتأخرين، بما أثاره من مُفارقات في وجه خصومه.

2- زينون مؤسس الجدل:

يرى "ديوجين اللائسي" كما أشرنا سابقاً أنّ أرسطو كان ينسب اختراع الجدل إلى "زينون الإيلي" تلميذ "بارميندس" وهو ما يُعلّق عليه محمد فتحي عبد الله (عبد الله، ف، 11، 1992) بقوله: "كان يشير إلى مُفارقات زينون التي دحضت بعض فُروض خصومه، بأنّ استخرجت منها نتائجاً لا يُمكن التّسليم بها". وهو نفس الرأي الذي يُؤكّده هيجل حيث يتفق مع أرسطو حين يقول: "أنّ أهمّ ما يُميّز زينون الإيلي هو

الجدل الذي بدأ به تاريخه، فقد كان زينون أستاذ المدرسة الإيلية التي وصل تفكيرها الخالص إلى حركة الفكرة الشاملة في ذاتها، وأصبح الروح الخالص للعلم... (عبد الفتاح، إ، 2007، 43). بناءً على ما تقدم يُمكن القول أنّ الجدل قد نشأ في القرن الخامس قبل الميلاد، وأنّ زينون الإيلي مُكتشف المتناقضات المشهورة فهو مُخترع الجدل (اللائسي، د، 2014، 126). رغم أنّه -كما يشير أغلب الدارسين- لم يستخدم صراحةً كلمة جدل، ويُنسب استخدامها لأول مرة إلى أفلاطون في مُحاوراته. إنّ الغاية من الجدل عند زينون هي إثبات نظرية أستاذه بارميندس في الوجود لأولئك الذين سخروا منها، حيث يُؤكّد وولتر ستيس في كتابه "تاريخ الفلسفة اليونانية" (ستيس، و، 1984، 48) "أنّ فلسفة بارميندس في الوجود تسعى إلى البحث عن الدائم وسط التغير، وإيجاد الثابت وسط نقلة الحركة والأشياء"، وهنا ينشأ التناقض بين الوجود واللاوجود، فالحقيقي المطلق هو الوجود واللاوجود هو غير الحقيقي. وهذا فالمعرفة لها طريقين يُمكن التفكير بهما، كما أشار إلى ذلك محمد فؤاد الأهواني (2009، 132) في كتابه "فجر الفلسفة اليونانية" "الوجود موجود ولا يمكن أن يكون غير موجود وهذا طريق اليقين، الوجود غير موجود ويجب أن لا يكون موجودًا وهذا طريق الظن. لا أحد يستطيع البحث فيه (اللاوجود) ولا أن تنطق به، لأنّ الفكر والوجود شيء واحد، فما تتلفظ به وتفكر فيه يجب أن يكون موجودًا، لذا من المستحيل أن يوجد اللاوجود، أو نستطيع إثباته لذا يجب أن ننصرف عن البحث في هذا الطريق".

صفات الوجود عند بارميندس:

1. الوجود لا يكون ولا يفسد لأنّه كلّ وواحد التركيب أي: واحد متصل.
2. لا يتحرّك ولا نهاية له، لأنّ المتحرّك له بداية ونهاية لحركته.
3. الوجود لم ينشأ من اللاوجود.
4. الوجود ليس منقسماً، لأنّه كلّ مُتجانس، وكلّ شيء مملوء بالوجود، فهو كلّ متصل.
5. الوجود كامل من جميع الجهات مثل كتلة الكرة المستديرة المتساوية الأبعاد من المركز (الأهواني، م، 2009، 132، 133).

وما يمكن أن نستخلصه من هذه الفلسفة أنّ طريق المعرفة لا يكون بالحواس (طريق الظن) بل بالعقل (طريق اليقين).

وكلّ ما تلحقه الصيرورة والتغير أي يكون ثمّ يفسد، يظهر ثمّ يختفي فهو غير موجود، وعليه "يغدو عالمنا المعروف لدينا غير حقيقي، عالمٌ وهميٌّ وهو مُجرّد مظهر. والوجود وحده هو الحقيقي، أي: المبدأ الأول للوجود غير المختلط تماماً باللاوجود والخالي كليّة من أيّ صيرورة" (ستيس، و، 1984، 48). وتكون عبارة بارميندس الشّهيرة "الوجود موجود واللاوجود غير موجود" هي الحقيقة المثلى التي تعبر عنها لغة المنطق بمبدأ التناقض: أي أ.

إضافةً إلى ذلك فنظرية بارميندس تنفي الكثرة والحركة، وهذا ما أثار سُخرية مُعاصريه الذين هاجموا بشدة. وهو الأمر الذي يُشير إليه أفلاطون في "مُحاورة بارميندس". حيث يتكلم زينون عن الغاية من ملحمته "عن الطبيعة"، فيقول: "إنَّ الغاية من كتابي هي: أنْ يُدافع بطريقته عن قضية بارميندس ضدَّ أولئك الذين يُحاولون السُّخرية منها، ويدعون أنَّ الوحدة تُؤدِّي إلى نتائج كثيرة، تبدو معها القضية مُضحكة ومُتناقضة. ويأتي كتابي ليردَّ على أولئك الذين يُؤكِّدون الكثرة ويكيل لهم بِأكثر من الكيل الذي يكيلون به" (أفلاطون، 2002، 12).

فقضية بارميندس كما أشرنا هي "الكُلَّ واحد"، لذا راح زينون يسلم أن "الأشياء كثيرة" ويبيِّن لهم ما يترتب عن التسليم بهذه القضية من خُلف وتناقض وبذلك تصحَّ القضية الأولى أنَّ "الكُلَّ واحد" (ستيس، و، 1984، 153).

3- مفهوم الجدل عند زينون:

مما سبق يتحدَّد مفهوم الجدل عند زينون "بأنَّه منهج يقوم على برهان الخُلف وإفحام الخصم بواسطة فحص النتائج المنطقية" (ستيس، و، 1984، 148).

فالقضايا المتقابلة تُؤدِّي إلى نتائج متناقضة، وقد كان زينون يعتمد في إقامة براهينه على مبدأ التناقض بصورة جوهرية، وذلك من خلال إظهار النتائج غير المقبولة النَّاشئة عن تلك الفروض. وذلك أنَّ المجالد حين يُسلم بالطرف الآخر من التقيضين، ثمَّ يُثبت استحالة قُبوله لما يترتب عليه من خُلف، فإنَّه بذلك يُثبت صحَّة التقيض الأول. وقد ذكر ذلك أيضًا بدوي في كتابه ربيع الفكر اليوناني (بدوي، ع، دون سنة، 126) مُؤكِّداً "أنَّ الفرق بين زينون وبارميندس، أنَّ بارميندس كان يستخرج ماهية الوجود من الوجود نفسه استخلاصًا استدلالياً، لأنَّ صفات الوجود كُلِّها تُستخلص من ماهية الوجود، أمَّا زينون كان يستخدم طريقة غير مُباشرة، وذلك بأنْ يقول أنَّ المذاهب المضادة لمذهب الوجود عند بارميندس تفضي قطعاً إلى تناقض ومعنى ذلك أنَّها غير صحيحة".

ولتوضيح الأمر أكثر نقف عند بعض حُجج زينون في إبطال الكثرة والحركة وهي:

1/ الحجَّة في إبطال الكثرة والتعدُّد: إذا سلَّمنا أنَّ الأشياء كثيرة فيترتب على ذلك ما يلي:

(أ): أمَّا أنَّها نهائية في العدد.

(ب): وإمَّا أنَّها لانهائية في العدد.

والنتيجتان متناقضتان وبيان الحجَّة يكون كما يلي:

(أ): إذا كانت الأشياء كثيرة فلا بدَّ أنَّ عددها هو لا أكثر ولا أقلَّ، وإذا كان عددها هو هو فهي نهائية.

(ب): إذا كانت الأشياء كثيرة فهي لانهائية العدد، إذ بيِّن كلَّ شيئين شيء آخر، وهكذا إلى ما لانهائية

(الأهواني، م، 2009، 153).

ومما سبق ذكره يظهر أنّ التسليم بهذه القضية يترتب عنه التناقض، وهذا يعني بطلان القول بالكثرة وبالتالي تصحّ القضية الأولى أنّ "الكُلّ واحد".

ومن بين حُجج زينون في إبطال الحركة حُجّة أخيل والسّلحفاة "فأخيل أسرع العدائين لا يُمكنه أن يلحق بالسّلحفاة، إنّ سبقته بأيّ مقدار من المسافة، فلنّ يلحق بالسّلحفاة لابدّ له أن يقطع المسافة التي تقدّمت السّلحفاة بها، ولكنّه لكي يقطع هذه المسافة لابدّ له أن يقطع نصف هذه المسافة، وهكذا باستمرار إلى ما لانهاية" (مطر، أ، 1998، 97). أي أنّ المسافة تنقسم إلى ما لانهاية.

أما حُجّة السّهم فيقول: "فلو تصوّرنا أنّ سهماً انطلق من نقطة مُتّجّها إلى نقطة أخرى، وكان الزّمان مُنقسمًا إلى وحدات كلّ منها هي الآن، وكان السّهم في انطلاقه يوجد دائمًا في آن، ولما كان وجوده في الآن وجودًا ساكنًا، فإنّه سيكون إذًا ساكنًا باستمرار، ومعنى هذا أنّ السّهم لا يتحرّك، أي أنّه ينطلق ولا ينطلق ما يعني أنّنا ننتهي إلى نتيجتين متناقضتين ممّا يُؤدّن بطلان المقدّمة" (بدوي، ع، دون سنة، 130). إنّ زينون عندما ينفي الكثرة والحركة، إنّما ينتصر لمذهب أستاذه بارميندس في الوجود، ضدّ الخصوم خصوصًا من الفيثاغوريين الذين كانوا يتصوّر العالم مركّبًا من أعداد.

وقد ألزمهم الحجّة: "بأنّ افترض أنّ العدد إمّا وحدة لا تنقسم، فالأشياء تتكوّن من وحدات لا نهائية، إذ لا نهاية للأشياء فضلًا عن وجود مسافة بين كلّ وحدة وأخرى، وإمّا أنّه ينقسم فيمكن بذلك أن ينقسم إلى ما لا نهاية له، أو إلى شيء لا طول له ولا عرض ولا عمق. أي: إلى صفر وإذا جمعنا الأصفار كان الناتج منها أصفارًا (الأهواني، م، 2009، 153).

النتائج المستخلصة:

- 1) زينون الإيلي هو أول من استخدم الجدل الفلسفي كألية حجاجية في فلسفة الطبيعة وإثبات الوجود الحقيقي.
- 2) أثارت مفارقات زينون الكثير من الإشكاليات الفلسفية التي ساهمت في توجيه الفكر الفلسفي من بينها: ماهية الزّمان والمكان، الكثرة والحركة، والتعارض بين عالم المعقول وعالم المحسوس.
- 3) شكّلت فلسفة زينون مصدرًا خصبًا لكثير من الفلسفات التي اتخذت من الجدل أساسًا ومنهجًا لها كالفلسفة هيكل وماركس.
- 4) الجدل عند زينون ليس مجرد سفسطة، غرضه مُغالطة الخصوم والتّمويه عليهم، بل هو منهج يُحقّق انسجام الفكر مع ذاته ويتوافق مع مبادئ العقل. أي: الغاية منه ليست الجدل لذات الجدل بل إدراك حقيقة الوجود.
- 5) ساهم جدل زينون في قضايا فلسفة الطبيعة في إرساء علم المنطق الذي تأسّس مع أرسطو.

مناقشة النتائج:

لقد أثارت مفارقات زنون العديد من القضايا التي ساهمت في توجيه الفكر الفلسفي ووضعه أمام تحدي معرفي، وطال هذا التأثير ميدان العلم الطبيعي، ومن أهم الإشكاليات التي أثارها خُجج زنون ما العلاقة الموجودة بين عالم العقل ومبادئه المعقولة الثابتة، وعالم الحس وظواهره المتغيرة؟. وما طبيعة المكان والزمان؟، وماذا تعني التهاية واللانهاية كموضوع رياضي؟.

"يُعتبر زنون أول من أظهر التناقضات الجوهرية التي تكمن في أفكارنا عن المكان والزمان ومن ثم طرح مشكلة هامة على كل الفلسفة التالية" (ستيس، و، 1984، 56). فطبيعة المكان والزمان لطلما أثارت الاختلاف بين الفلاسفة منذ أن أثارها زنون، وهذا بدءاً من أرسطو ثم ديكارت وليبنتز، ونيوتن وكانط، وأينشتاين... في النظرية النسبية.

إذا كان القدماء قد رفضوا نظرية زنون في انقسام المسافة إلى ما لانهاية، فإن الرياضيين المحدثين وعلى رأسهم ليبنتز رأوا أنّ هذا الانقسام واقعي، ومن هنا نشأ الحساب اللانهائي (التكامل والتفاضل) (الاهواني، م، 2009، 154).

يرى بدوي (دون سنة، 131، 130) من خلال حجة السهم أنّ زنون أثار مشكلة خطيرة ولعبت دوراً خطيراً في تاريخ الفلسفة من بعده، فإذا قلنا بالتقسيم فكيف نُفسر الاتصال؟ لأنّ الواقع أنّ كل تقسيم معناه الانفصال، وفي هذا إنكار للاتصال، وفي إنكار الاتصال إنكار للتأثير وفي إنكار التأثير إنكار للتغير. من جهة أخرى يؤكد "هيجل" الفكرة القائلة أنّ "كل سلب تعين وكل تعين سلب" حيث يقول: "إني لأجد شيئاً مثيراً عند زنون وهو الوعي بأنّ سلب التعين تعين، بمعنى أنّ الإنسان حين يُنكر تعينا ما، فإنّ هذا الإنكار أو السلب هو نفسه تعين جديد" (عبد الفتاح، إ، 2007، 44). فنفي الحركة سلب يُثبت السكون كتعين، ونفي الكثرة سلب يُثبت الوحدة كتعين جديد.

ومن الأفكار التي توقّف عندها هيجل (46، 45، 2007) "هي أنّ الجدل عند زنون انصبّ على الحركة، وسبب هذا الإعجاب هو أنّ الجدل نفسه حركة، فالشيء لا يتحرك إلا إذا كان يحوي جدلاً داخلياً في جوفه، لأنّ الحركة هي الصبرورة للآخر"، وهذا المعنى يتوافق مع مفهوم هيجل للجدل الذي هو حركة الفكر في الانتقال من الفكرة إلى نقيضها، ومتابعة هذه الصبرورة حتى نصل إلى المطلق.

من جهة أخرى أثار زنون والمدرسة الإيلية من خلال جدلهم مشكلة الحمل، "إذ أنّ كلّ علاقة تركيبية بين موضوع ومحمول تكون ممتنعة، فيصبح العلم مستحيلاً. حيث فرضت هذه المشكلة نفسها على أفلاطون وعلى أرسطو اللذان سعيا إلى حلّها فيما بعد"، (تريكو، ج، 2015، 29).

وبالفعل قد تمكّن أرسطو فيما بعد من حلّ هذه المشكلة من خلال نظرية التّقابل التي تحتل مكانة كبيرة في المنطق الأرسطي، حيث وُضعت هذه النظرية من أجل إثبات أنّ الحمل مُمكن سواء كان تحليلياً أو تركيبياً.

كما يتفق جدل زينون مع المعنى الذي حدده أرسطو فيما بعد، فالمجادل عند أرسطو هو الذي يقوم بعملية الاستدلال بالإيجاب أو بالسلب على مسألة واحدة، مع الدفاع عن إحدى الوجهتين أو أحد الرأيين مع الانتباه والحرص الشديد والتيقن من عدم الوقوع في التناقض وهو ما يتطابق مع المفهوم الذي أشار إليه ابن رشد في كتابه "تلخيص منطق أرسطو" الجدل: هو بالجملة الصنعة التي نقدر بها، إذا كنا سائلين أن نعمل من مقدمات مشهورة قياسًا، على إبطال كل وضع يتضمن المجيب حفظه، وعلى حفظ كل وضع يروم السائل إبطاله إذا كنا مجيبين (ابن رشد، 1996، 499).

فالقياص الجدلي يتم بين طرفين على شكل محاوراة أحدهما سائل وظيفته نقض وضع، والآخر مجيب غايته حفظ وضع. وهو مفهوم تجسده محاورات زينون. فزينون كان يمثل دور السائل الذي يرمي إلى دحض أطروحات الخصوم، في حين يمثل الخصوم دور المجيب الذي يسعى إلى حفظ وضع وإثباته.

فالدقة المنطقية للاستدلال عند زينون كانت واضحة، فجدل زينون لا يتعارض مع مبادئ العقل وأهمها مبدأ عدم التناقض، "حيث أنه كان يُسلم بإحدى قضايا خصومه ويستنتج منها قضيتين متناقضتين ويُثبت بذلك بطلانها" (الأهواني، م، 2009، 109). لكن هذا لم يمنع البعض من اتهمه بالسفسطة بالرغم من أن السفسطائيين كانت غايتهم مغالطة الخصم والتمويه عليه.

ويشير الأستاذ عبد الرحمن بدوي إلى هذه القضية أيضا حيث يؤكد "أن زينون كان يرمي من وراء جدله إلى إثبات حقيقة إيجابية هي مذهب الوجود عند أستاذه ضدّ الأنساق وثوقية بينما كان السفسطائيون يرمون من وراء جدلهم إلى نتائج سلبية، هي القضاء على الفلسفة كما تصوّرت ذلك الحين" (بدوي، ع، دون سنة، 127).

ما معنى قول زينون أن الحركة والكثرة غير حقيقتين؟ "إن زينون لا يُنكر الحركة والكثرة، وكما يقول هيجل فإن وجود الحركة والكثرة مؤكّدة حسيًا مثل وجود الفيلة، ولكن نفي زينون هو حقيقة الوجود. أي: أن العالم ليس هو العالم الحقيقي إنه مجرد مظهر، وهم وعرض خارجي المقصود هو أن الأشياء من حولنا لها وجود، ولكنّه ليس وجودا ذاتيًا، ليس جوهرية ذاتية" (ستيس، و، 1984، 61، 60)، أي: أن وجود الأشياء يتوقف على شيء آخر يمثل الحقيقة، أما الأشياء في ذاتها ليست سوى مظاهر لهذه الحقيقة.

ويعترض سقراط على زينون وجوهر اعتراضه أن بارميندس يقول: "أن الكل واحد" وأن زينون يقول "الأشياء ليست كثيرة"، حيث ورد ذلك في محاوراة بارميندس على لسان سقراط قائلاً: "..... هكذا أنت في قصيدتك تؤكد أن الكل هو واحد، وتقدم لذلك براهينًا قوية، أما هو- يقصد زينون- فيؤكد بدوره عدم وجود الكثرة، ويقدم هو أيضًا براهينًا قوية، فعندما يثبت الأول الواحد وينفي الثاني الكثرة، فأنكما تتحدثان كل من جانبه... بينما تقولان نفس الشيء، ومن هنا تبدو مقالاتكم ثثرة فوق طاقة عقولنا نحن الناس العاديين" (افلاطون، 2002، 12، 11).

لكن زينون يجيب مُعتذرا أن الهدف من كتابه بالدرجة الأولى هو الدفاع عن فكرة بارميندس في الوجود.

"ويردّ أرسطو على حجة الكثرة لدى زينون بأنه أخطأ في فهم الواحد الحسابي أي العدد، الذي يختلف عن الجسم الطبيعي، فزيادة العدد كثرة وزيادة الجسم عظم، لأنه يعظم أو يكبر" (الأهواني، م، 2009، 153). كما يؤكّد جول تريكو: "أنّ حُجج زينون تتضمن مغالطات منطقيّة، ما يجعل القياس المنطقي فاسداً من حيث صورته، حيث يعتبر جون ستيوارت مل أنّ حجة أخيل والسّلحفاة تتضمن مغالطة صور الكلام، والتي تقوم على غموض كلمة "لانهاية" (تريكو، ج، 2015، 303).

أما فيما تحتويه حجة السهم من مغالطة منطقيّة وهي "أغلوطة الحدّ الرابع" كما ذكر ذلك بدوي (دون سنة، 133) "أي: استعمال اللفظ الواحد بمعنيين مختلفين في قياس واحد. فحين يقول زينون: أنّ السهم يوجد في مكان واحد بعينه لا ينتقل إلى مكان آخر، وإما أن يكون بمعنى أنّه يوجد دائما في مكان مساوٍ، وزينون يستعمل عبارته بالمعنيين وهذه مغالطة منطقيّة". ورغم هذا لا ينفي بدوي أنّ حجة السهم فيها الكثير من الوجهة، "فإذا تصوّرنا الزمان أو المكان مقسمين إلى أجزاء، وكلّ تقسيم يكون على أساس التفرقة، وإلا لم يكن ثمة تقسيم ومعنى هذا أنّ بين الجزء والجزء شيئاً يفصل بينهما، والصعوبة هي في الانتقال من الجزء إلى الجزء. وهذه المشكلة قد أثارت كثيرا من الجدل، والذي مازال قائما حتى اليوم" (بدوي، ع، دون سنة، 134).

إضافةً إلى هذا يؤكّد أرسطو ردّاً على مُتناقضات زينون "أنّ الزمان والمكان يقبلان القسمة إلى ما لانهاية بالقوة لا بالفعل لأنهما مرتبطان" (عبد الفتاح، إ، 2007، 47، 46)، لأنّ زينون يُسلم بأنّ هذا الانقسام يحصل بالقوة ولا يمكنه أن يحصل بالفعل.

وفي نفس السياق يميز زينون بين الزمان والحركة. فهو يعترف بوجود الزمان لكنّه يُبرهن عدم وجود الحركة، رغم أنّهما شيء واحد، لأنّ الحركة توجد الزمان.

ومن المؤاخذات التي تؤخذ على زينون كما يُشير إلى ذلك إمام عبد الفتاح إمام (2007، 47) "أنّ جدله كان جدلاً ذاتياً، فهو حركة تتمّ على مستوى الدّهن فقط، والأجدر أن ينتقل الجدل من الدّات المفكرة إلى عالم الأشياء، لأنّ عالم الأشياء دائم الحركة والتغيّر، ولا يمكن أن ندرك حقيقته انطلاقاً من هذا التصوّر.

*- خاتمة المقال:

وأخيراً يُمكن القول أنّ حُجج زينون التي صاغها دفاعاً عن نظرية أستاذه بارميندس في الوجود نصّبته مؤسساً للجدل، والتي كان لها الأثر الكبير على تاريخ الفلسفة والعلم معاً. فالباحث في مجال فلسفة الطبيعة سوف يجد نفسه مضطراً للولوج إلى فلسفة زينون ليكشف على مفاهيم عديدة كالزّمان والمكان، الحركة والسكون، والكثرة والوحدة....

فالمفاهيم الفلسفية ليست مُنقطعة عن سياقها، ولم تنشأ من عدم فهي لم تتحدّد بشكلها المعاصر إلا بعد أن قطعت رحلة طويلة عرفت خلالها العديد من التّغييرات والتّعديلات.

كما أنّ المشتغل بالمنطق لا يُمكن له بأيّ حال من الأحوال أن يغضّ الطرف عن مُساهمة زينون العظيمة في إرساء مبادئ علم الجدل، وتأكيدده على ضرورة التماسك المنطقي كمقياس للأخذ بأيّ نظرية أو رفضها، ممّا جعل عملية التأسيس لعلم المنطق سهلة على أرسطو.

قائمة المصادر والمراجع:

باللغة الأجنبية:

1/Encyclopédie universalis,(1993),France. corpus7.

باللغة العربية:

- 1- ابن رشد، أبو الوليد، (1996) تلخيص منطق أرسطو، دراسة وتحقيق جبرار جهامي، بيروت، لبنان، دار الفكر اللبناني، ط1.
- 2- افلاطون، المحاورات الكاملة، كتاب الجمهورية، ترجمة شوقي داود تميز، بيروت، لبنان، دار الاهلية للنشر والتوزيع، 1994، د.ط.
- 3- أفلاطون، (2002) محاوره بارميندس، ترجمة حبيب الشاروني، القاهرة، مصر المجلس الأعلى للثقافة العربية، ط1.
- 4- إمام، عبد الفتاح إمام، (2007)، المنهج الجدلي عند هيجل، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ط3.
- 5- الأهواني، محمد فؤاد، (2009)، فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، القاهرة، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- 6- بدوي، عبد الرحمن (دون سنة)، ربيع الفكر اليوناني، القاهرة، مصر، مطبعة التأليف والنشر والترجمة، ط3.
- 7- تريكو، جول (2015)، المنطق الصوري، ترجمة محمود يعقوبي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2.
- 8- الدمشقي، ابي عثمان، (1980)، الطوبيقا، تحقيق وتقديم عبدالرحمن بدوي، الكويت، وكالة المطبوعات، ط1
- 9- ستيس، ولتر (1984)، تاريخ الفلسفة اليونانية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، القاهرة، مصر، دار الثقافة للنشر والتوزيع.
- 10- صليبا، جميل، (1982)، المعجم الفلسفي (ج1)، بيروت، لبنان، دار الكتاب اللبناني، ط2.
- 11- عبد الله، محمد فتحي (1995)، الجدل بين أرسطو وكانط، بيروت، لبنان، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1.
- 12- اللايرسي، ديوجين، (2014)، حياة مشاهير الفلاسفة (مج3)، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، مراجعة محمد علي ابراهيم، القاهرة، مصر، المركز القومي للترجمة، ط1.

-
- 13- مذكور، إبراهيم، (1983)، المعجم الفلسفي، مصر، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية.
- 14- مطر، أميرة حلي، (1998) الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها، القاهرة، مصر، دار قباء للطباعة للنشر والتوزيع، ط2.
- الموقع الإلكتروني:
-ديالكتيك هيجل، (2019)، ترجمة فراس الحمدان، موسوعة ستانفورد الفلسفية،
<https://hekmah.org>